أبو محمد عبدالحميد بن أبي الدنيا
لبنة من أجود لبنات وحدة المغرب العربي

الدكتور

عمر مولود عبدالحميد

أستـــــاذ الدراســـــــات العليـــــــا بليبيا
رئيس قسم اللغة العربية والدراسات القرآنية
بجامعة الزاوية "السابع من أبريل سابقا"

أيام 20-23 الكانون (ديسمبر)
1424 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1995 أفرنجي

المقدمة:

جرت سنة الله في عباده أن يتقلبوا في حياتهم بين حالات متعددة وظروف متغيرة، من فقر إلى غنى، ومن صحة الى مرض، ومن ضعف إلى قوة ، ومن حياة إلى موت ، ومن غيبة إلى حضور، ومن حزن إلى سرور، فدوام الحال من المحال ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [سورة الأحزاب، الآية: 62]، وما ذلك إلا دليل على ضعف المخلوق وعظمة الخالق حتى لا يطغى الانسان أو يبطر، وحتى يعيش على عبوديته التي تمثل حقيقته، والتي إن غفل عنها كانت المتغيرات له بالمرصاد تلفت نظره إلى واقعه وترده إلى حقيقته.

وهذا من الأسرار الربانية التي أنزل القرآن على نهجها، حيث حفل بقصص الأولين التي تحكي لنا أحوال ضعفهم وقوتهم وجمعهم وتفرقهم ونجاحهم وسقوطهم مشفوعة بأسباب هذه التغيرات وعوامل هذه التقلبات، وقد أمرنا أن نعتبر بها وأن نضعها في ميزاننا طيلة حياتنا حتى تظل موازيننا عادلة صادقة، تتمشى مع الحقائق وتسيير وفق العدالة التي لا يزيغ من عاش معها، ولا يظل عن جادة الخير وطريق السلامة في حياته كلها، وكل أمة لابد أن يكون لها في سجل تاريخها من الإشعاعات النورانية ما ينبهها إن غفلت، ويوقضها إن نامت وينتشلها إن سقطت، والأمة الإسلامية، وفي مقدمتها الأمة العربية، هي من اوائل الأمم التي حفل تاريخها بكثير من الإشعاعات التي يمكن أن تكون لها خير هادٍ إلى تصحيح المسار، وإضاءة الطريق، والأخذ بعوامل النجاح، وسلوك أقوم السبل، ونحن نلتقي الآن في رحاب كلية الدعوة الإسلامية التي قامت مشكورة بوضع برنامج يسير في نفس الطريق الذي أشرت إليه ، والذي نلتمس من خلاله مواضع الهدى وعوامل النجاح.

مما قدمه علماء هذه الأمة العريقة من جهود جبارة سجلها التاريخ بمداد من ذهب وصارت مرجعاً لنا يحرك فينا عوامل الخير، ويوجهنا إلى الطريق الذي بسلوكه

نهتدي إلى أقوم طريق، طريق الوحدة وجمع الشمل ، واتحاد كلمة الأمة الاسلامية ابتداءً بشعوب وطننا المغرب العربي الكبير الذي أسهم قطب هذا اللقاء إسهاماً فعالاً في رأب الصدع وجمع الشمل، والتقاء أقطار المغرب العربي من ليبيا إلى الجزائر مروراً بتونس إلى المغرب الأقصى نهاية بموريتانيا. وكان في أعماله العظيمة خير مثال للعلماء في هذا الوقت الذي تكالبت فيه شعوب الأرض واتحدت على الضلال ضد الناطقين بالضاد، فجيشوا جيوشهم، وحركوا أساطيلهم، وحبكوا مؤامراتهم، واستعدوا نفسياً وجسمياً ومادياً ومعنوياً ضد أمة الخير، أمة الإسلام، وبخاصة الأمة العربية.

ولا يصح أن تتحرك الدنيا كلها ضدها وهي نائمة تقابل إساءتهم بالصفح، وتتلقى ضرباتهم بالاستسلام، ومعها من أسباب النصر وعوامل الظفر ما يفل حديدهم، ويردُّ كيدهم إلى نحورهم، وإذا كان الخروبي من بين أبطال هذه الأمة حيث عمل جاداً من أجل إيقاظ النائمين وتنبيه الغافلين في المغرب العربي الكبير، فإن من قبله ومن بعده الكثير والكثير ممن أسهموا بنصيب وافر في هذا الميدان، وبما أنني قد كتبت عن الخروبي بحثاً منذ سنوات نشر في العدد الأول من مجلة كلية اللغة العربية، ذكرت خلاله شذرات من تاريخ هذا العالم الجليل، فقد رأيت الآن أن لا أكرر حديثي حوله، لأن في تاريخنا أمثاله، وأعظم منه الكثير والكثير، لذا رأيت أن أقدم لمحة موجزة تفي ببعض الغرض الذي نلتقي من اجله حول أحد أبطال تاريخ المغرب العربي وهو ابن أبي الدنيا. فمن هو ابن أبي الدنيا، وما هي أعماله وماذا ترك لنا؟ هذه الصفحات المتواضعة تجيب عن هذه الأسئلة.

من هو ابن أبي الدنيا؟

اشترك واشتهر بهذه الكنية على مستوى التأليف والبحث العلمي عالمان جليلان.

أحدهما: عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس أبو بكر القرشي الأموي البغدادي المعروف بابن أبي الدنيا، وهو محدث حافظ مشارك في أنواع من العلوم، ذاع صيته وانتشر خبره وأدب بعض أولاد خلفاء بني العباس ومنهم المكتفي بالله، وقد ولد ببغداد سنة 208هـ في عهد الخليفة المأمون، وتوفي بها سنة 281هـ وله تصانيف كثيرة اوصلها بعضهم إلى ثلاثمائة، وقد تم الوقوف على 28 كتاباً سرد أسماءها وأشار إلى مواقع بعضها الأستاذ مصطفى مفلح القضاء[1]، وقد وصفت بالنفع والذيوع[2].

ثانيهما: أبو محمد عبدالحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي وهو المقصود بالحديث هنا، وسنتعرض له من جوانب عدة في ظل ما تيسر لنا من المراجع وما نستنتجه من آثاره العلمية مما تم العثور عليه منها.

مولده ونشاته:

ولد ابن أبي الدنيا بطرابلس في منتصف شعبان سنة 606هـ الموافق 1209م ولم تذكر المراجع شيئاً عن حياته الأولى ولا عن حياة والديه، ولذا نستنتج ان تكون حياة عادية إذ لو كانوا من بيت علم او سلطان لما أهمل هذا الجانب.

طلبه للعلم وأشهر أساتذته:

ابتدأ ابن أبي الدنيا حياته العلمية بالتوجه إلى الكتَّاب لحفظ كتاب الله العزيز جرياً على عادة أبناء البلاد آنذاك في أنهم يعتبرون حفظ القرآن الكريم المرحلة

---

(1) إصلاح المال – أبو بكر بن أبي الدنيا – تحقيق مصطفى مفلح، ط: دار الوفاء.

(2) المصدر المذكور، ص22.

الأولى للتعليم، ولابد منها لكل من صار في مقدوره أن يحسن الكلام ويجيد التعبير، ثم تردد على المساجد والزوايا ينهل من مجالس العلماء ما يزيل عطشه، ويروي ظمأه ويقوي عقله ، وينشئ فيه ملكة العلم، وكان من بين من أخذ عنهم العلم بطرابلس ابن الصابوني، وأبو عباس بن عيسى الغماري– قاضي طرابلس–، وأبو موسى عمران بن موسى الهواري، ومحمد بن مسلم القابسي.

وقد ارتحل للمشرق –اعني به مصر– طلباً للعلم مرتين، الأولى كانت سنة 624هـ وعمره يومئذ ثماني عشرة سنة، والثانية كانت سنة 633هـ وعمره حينئذ سبع وعشرون سنة، حيث واصل تعلمه على يد كبار العلماء بمصر، ومن بينهم عبدالكريم بن عطاء الله الجذامي، وشيخ القراء عبدالصمد الصفراوي، وقاضي الجماعة بالإسكندرية جمال الدين بن فائد الربعي. وعز الدين بن عبدالسلام، وغيرهم، ثم عاد إلى طرابلس فجلس للتدريس والإفتاء بها، وقد تاقت نفسه إلى زيارة تونس للقاء علمائها والتعرف على دور علمها، وذلك إبان حكم الأمير أبي زكريا، فقام بذلك ولكن لم تطل إقامته بها.

الأعمال التي قام بها:

اشتغل في طرابلس بالتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد.

ولما ذاع صيته بها وانتشر خبر مقدرته العلمية وصلاح دينه استدعاه أمير تونس الأمير أبو زكريا الحفصي فولاه وظيفة قضاء الأنكحة، ثم قضاء الجماعة بتونس سنة 671هـ، كما ولاه الخطابة في الجامع الأعظم، وخلال ذلك كان يقوم بالتدريس أيضاً، وقد ذكر الغبريني أن ابن أبي الدنيا إذا جلس للتدريس فإنك تقرأ عليه الفنون الثلاثة: الفقه وأصوله، وأصول الدين[1] ، كما أنه كلف من طرف المستنصر بالله بتأسيس المدرسة المستنصرية بطرابلس.

---

(1) أبو العباس الغبريني – عنوان الدراية – بتصرف 110 منشورات لجنة التأليف والترجمة بيروت.

تلاميـــذه:

على الرغم من مكانة ابن أبي الدنيا العلمية العظيمة، وقيامه بالتدريس في كل من طرابلس وتونس مدة طويلة من الزمن إلا أن المصادر التي وصلت إلى يدي لم تذكر من تلاميذه إلا القليل.

ومن بينهم: أبو العباس الغبريني[1]، وأبو فارس عبدالعزيز بن عبدالعظيم الطرابلسي، وابن قداح، وابن جماعة، وأبو إسحاق إبراهيم بن يوسف[2]، وأبو يحيى أبو بكر بن رفيق المجريسي الجنزوري[3].

آثاره العلمية:

لهذا العالم آثار علمية يتمثل بعضها في كتب مستقلة من تأليفه، وبعضها الاخر مذكور ضمن كتب لغيره استشهدوا بها، وأسندوها إليه:

فمن بين ما ذكر له من الكتب:

1-جلاء الالتباس في الرد على نفاة القياس.

2-مذكي الفؤاد في الحض على الجهاد.

3-العقيدة الدينية.

4-شرح هذه العقيدة.

5-التذكرة في الوعظ.

وقد ذكر الغبريني أن الطلاب كانوا يحفضونها على عهد مؤلفها، ويقوم هو بشرحها لهم، ولكن لم يذكر لنا هل كانت منثورة، او منظومة، وأغلب الظن أنها كانت منظومة.

---

(1) المرجع السابق، ص109.

(2) محمد بن محمد مخلوف – شجرة النور الزكية، ص192، ص206.

(3) النائب – المنهل العذب ، تاريخ طرابلس الغرب –ص106. مطبعة الاستقامة.

وعلى الرغم من أن كثيراً من العلماء كتبوا عن حياة ابن أبي الدنيا وكلهم يذكرون له هذه الكتب، ولكن لم يشر أحد إلى مكان وجودها، وقد بحثت عنها كثيراً في كل من: مصر، وطرابلس، وتونس، والجزائر، والمغرب، وتركيا. إلا أنني عجزت عن وجود أي منها، وقد ذكر لي الشيخ الفاضل بن عاشور أن من المرجح ضياع هذه الكتب إبان احتلال الإسبان لتونس، وعبثهم بمكتبة جامع الزيتونة، وذلك لأن ابن أبي الدنيا كان بتونس إلى عهد وفاته، وكتبه ظلت معه وحل بها ما حل بغيرها على يدي أعداء حضارة الإسلام وتراثه الخالد.

وفي سنة 1977 تحدثت أثناء محاضراتي في أصول الفقه على طلبة الدراسات العليا بجامعة طرابلس "الفاتح سابقا"، فذكرت لهم أن من بين مهام طلبة الدراسات العليا إحياء التراث، ومحاولة جمع ما تناثر عند المواطنين من مخطوطات للقيام بتحقيقها حتى يتم الانتفاع بها، وذكرت لهم بعض العلماء الذين تركوا آثاراً علمية ما زال بعضها في سجل التاريخ، ونحتاج إلى تكثيف الجهود لكي يتم التعرف عليها، مثل: الخروبي ، وابن أبي الدنيا الطرابلسي، وبعد مضي فترة على هذا التوجيه أفادني أحد الطلبة المشار إليهم بوجود مخطوطة تحمل عنوان "التذكرة في الوعظ" لابن أبي الدنيا في مكتبة الأوقاف بمدينة طرابلس، فذهبت إليها وتصفحتها، ووقع في نفسي شك في نسبتها إلى ابن أبي الدنيا الذي نتحدث عنه.

لذا تركتها مؤقتاً لانشغالي بما هو أهم.

وعند افتتاح جامعة الزاوية "السابع من أبريل سابقا" للدراسات العليا وجهت الطلاب إليها وأحضرت لهم نسخة منها ليقوموا بتحقيقها من خلال دراستهم لمادة تحقيق المخطوطات بالسنة التمهيدية، فقاموا مشكورين بهذا العمل، وترجح لدى معظمهم أنها لابن أبي الدنيا الطرابلسي، وقامت ترجيحاتهم على الأدلة، والقرائن التي نلخصها في الآتي:

أولاً: أنّ المخطوطة تسند كثيراً من الأحاديث إلى ابن أبي الدنيا القرشي باسمه واسم أبيه وقبيلته وكنيته بشكل لا يدع مجالاً للبس، حيث ورد في صفحة 11 منها قول صاحبها: "روى الإمام أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا قال: حدثنا أبو عبدالرحمن عبدالله بن عمر ..".

وفي ص12 بعد أن سرد المؤلف حديثاً قال: هكذا روى هذا الحديث عبدالله أبو بكر بن أبي الدنيا القرشي رحمه الله....، وفي نفس الصفحة قال: "من كتاب الأحوال لابن أبي الدنيا رحمه الله ذكر الميزان وما فيه من رواية عبدالله ابن أبي الدنيا".

وجاء في ص14: "روى عبدالله أبو بكر بن أبي الدنيا باسناده: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم....".

ومن هذا القبيل في المخطوطة كثير، ويؤخذ منه أن صاحب هذه المخطوطة ليس ابن أبي الدنيا القرشي؛ لأن الانسان لا يسند إلى نفسه شيئاً بأسلوب الغيبة ويردف عليه قول رحمه الله "وهو نفسه الذي يكتب أو يتحدث، لأن الترحم وإن صح أن يطلب للحي وللميت لكن جرت العادة أن يؤتى به للميت فقط، ثم لا يصح من مثل ابن أبي الدينا أن يصف نفسه بالإمام كما في النص الذي أشرت إليه في صفحة 11 عملاً بقوله تعالى: ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [سورة النجم، الآية32]

ثانياً: ورد في المخطوطة ذكر بعض الأعلام المتأخرين وجوداً عن ابن أبي الدنيا القرشي، مما يؤكد ان المخطوطة ليست له، ونذكر بعضاً منهم على سبيل المثال لا الحصر:

1- ورد في المخطوطة في صفحة 43 "قاله شرف الدين أبو العباس أحمد بن موسى بن يونس شارح كتاب التنبيه في مختصر الأحياء للشيخ أبي حامد الغزالي حجة الإسلام رحمه الله".

وإذا عرفنا ان الغزالي ولد سنة 450هـ وتوفى سنة 505هـ فهو نفسه –فضلاً عمن شرح كتابه– متأخر عن ابن أبي الدنيا القرشي، فكيف ينقل ابن أبي الدنيا القرشي عنه وهو لم يعاصره ولم يتأخر عنه، فلزم أن تكون المخطوطة لغير ابن أبي الدنيا القرشي.

2–ورد في المخطوطة في صفحة 24 وصفحة 49 وغيرهما اسم الشيخ الإمام الحافظ ضياء الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالواحد المقدسي، وهو دمشقي ولد سنة 569هـ وتوفى سنة 643، ولا مجال حينئذ إلى القول بأن صاحب المخطوطة هو ابن أبي الدنيا القرشي لأنه من أصحاب القرن الثالث الهجري.

3–أساليب ومصطلحات مستحدثة: في القرن الثالث الهجري وما قبله كانت العناوين والفهارس لا تعتمد على ذكر أبواب وكتب وأسماء رؤوس المواضيع، بينما المخطوطة ذكرت فيها الفصول والأبواب وأسماء رؤوس المواضيع.

فذكر الفصول أسلوب مستحدث لم يكن في القرن الثالث الهجري الذي عاش فيه ابن أبي الدنيا القرشي.

كذلك تحدثت المخطوطة عن الوقف في صفحة 47 فذكرت لفظ المدرسة وهو مصطلح مستحدث لم يعرف في عهد ابن أبي الدنيا القرشي، وقد ذكر المقريزي أن نظام المدارس استحدث في الإسلام ولم يعرف قبله، كما أنه لم يعرف في عهد الصحابة والتابعين، وإنما استحدث بعد الأربعمائة سنة الهجرية عند أهل نيسابور[1].

وقيل إن أول من أنشأ المدارس نظام الملك الذي اتخذ له وزراء سلاجقة من سنة 456–485هـ فأنشأ مدارس في كل من بغداد وبلخ ونيسابور.

(1) أحمد أمين –ضحى الإسلام، ج2، ص49 مكتبة النهضة.

مما تقدم يتضح أن المخطوطة ليست لابن أبي الدنيا القرشي، ولم يبق إلا نسبتها إلى ابن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي، لأنه لم يعرف أن غيرهما ممن يحمل كنيتهما ألف كتباً في المجالات التي ألف فيها هذان العالمان.

ويمكننا أن نهتدي إلى ذلك بالأمور الآتية:

أولاً: وجود المخطوطة اليتيمة في مكتبة الأوقاف بطرابلس، ثم في مركز جهاد الليبيين بعد أن تعرضت مكتبة الأوقاف لحريق –يرشح أن تكون هذه المخطوطة لابن أبي الدنيا الطرابلسي.

ثانياً: ورد في المخطوطة بعض الألفاظ العامية أو العربية المستعملة في ليبيا بكثرة مثل: قول مؤلفها في صفحة 44 "وتستجلبون بعض الجهال بالزوكرة والمحال والزور والبهتان" فإن لفظ الزوكرة كلمة عامية تطلق على المزمار الذي يصنع محلياً للعزف.

كذلك ورد في صفحة 54 قوله "فيقضمها كما يقضم فحل الإبل: الجمل الهائج" فقوله: الجمل الهائج هو تفسير لقوله: فحل الإبل، والجمل الهائج كلمتان عربيتان نستعملهما في ليبيا كثيراً بدلاً من فحل الإبل.

كذلك ورد في صفحة 41 قوله "واللبن: الحليب بالماء" ومعلوم أن الحليب واللبن معناهما واحد من حيث اللغة، لكن استعمل اللبن عند الليبيين فيما أخذت زبدته وخلط بالماء وصارت له حموضة ففسر اللبن بما جرى به العرف ولم يستعمله في المعنى اللغوي الأصيل.

كما ورد في المخطوطة لفظ مداس وهو نوع من النعال يستعمل في ليبيا بكثرة.

كما ورد فيها قوله "يحرر مكياله وذراعيه وميزانه وسنجه"، فإن كلمة يحرر تستعمل محلياً في ليبيا بمعنى توفيه الكيل، إلى غير ذلك من العبارات التي لو حاولنا تتبعها كلها لحصل الإطناب في القول، ولسنا في حاجة إليه، ويكفي ما ذكرنا

تدليلاً على أن "التذكرة في الوعظ" هي من تأليف ابن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي، والذي جعلنا في حاجة إلى هذا كله أن النسخة المذكورة ضاعت منها ورقة الغلاف التي عادة ما يوجد عليها عنوان الكتاب وبضياعها ضاعت الحقيقة ووقعنا في التأويل.

هذه هي الآثار العلمية التي تعرفنا عليها وهي في هيئة كتب، ويمكن أن يكون له غيرها ولكن لم نتعرف عليها بعد.

ثم إننا نجد بعض العلماء ينسبون له فتاوى ومناقشات علمية، وكذلك قصائد شعرية نتعرض لبعضها فيما يلي:

1-وقفت في المعيار للونشريسي على عدد من النقول عن ابن أبي الدنيا الطرابلسي نذكر مجملها فيما يلي:

أ- سئل الشيخ أبو محمد الزواوي والشيخ أبو محمد عبدالحميد بن أبي الدنيا عمن قال السلام عليكم وجمع بين التعريف والتنوين فأجاب كل واحد منهما بأن قال لا أعرف فيها نصاً[1].

ب- سئل أبو محمد عبدالحميد عمن قال لرجل: يا ابن العبد هل يحد أم لا؟ فأقام القاذف بينةً تشهد على السماع أنهم سمعوا أن جدّ هذا المقذوف كان عبداً.

فأجاب بأنها تجري على الخلاف بين ابن القاسم وأشهب، فعلى رأي أشهب لاحدّ عليه لأن عند أشهب يثبت الولاء بهذه الشهادة، وإذا ثبت بها الولاء فلا حدّ عليه لأنه قد أقام البينة على صدق ما قال، وأما على رأي ابن القاسم الذي لا يثبت بهذه الشهادة الولاء فقد يراعي فيها الخلاف ولا يحده، ويكون الخلاف شبهة يدرأ بها الحد[2].

---

(1) الونشريسي احمد بن يحيى المتوفى سنة 914هـ المعيار ، ج1، ص179، ط، دار المغرب الإسلامي، بيروت.

(2) المصدر السابق، ج2، ص427.

ج- وسئل أبو محمد عبدالحميد عن اتخاذ الكلاب في الجنات وموضع الزرع.

فأجاب: إن اتخاذ الكلاب في الجنات وموضع الزرع جائز، ومن شيوخنا المتقدمين من فعل ذلك في داره لأجل الخوف، وبالله أستعين[1].

د- وسئل عبدالحميد ابن أبي الدنيا عمن وجد زوجته تطلع من روشق (كذا) فقال أنت طالقة إن طلعت منه فخرجت من الدار، فهل عليه حنث في نظرها من غيره أولا؟

أجاب إن كان شأنها الخروج قبل ذلك فلا حنث عليه، وإلا فقد حنث[2].

هـ- وسئل عبدالحميد بن أبي الدنيا عمن أخذ ثوبين مختلفين رهنا في سلف ثلاثة دنانير فاختلفا، فقال دافع الثياب أخذتها على أن تأتيني بالدنانير ولم تات بها، وقال قابضها: إنما أخذتها لأريها أهل المعرفة بالقيمة لاختبر قيمتها، فسقط مني أحد الثوبين.

فأجاب: يسأل آخذها هل قصد باختبارهما إن كان يساويان قدر ما تلف فأكثر أخذهما رهناً، وردهما؟ فهذان لا يكونان رهناً إلا بعد الرضا والمعرفة بقيمتهما، وإن قصد أنهما إن لم يساويا قدر السلف اعطاه قدر ذلك أو أقل منهما فهذان رهن من وقت أخذهما ويضمن ما ضاع[3].

و- وسئل ابن أبي الدنيا عن رهان أهل الزمان وما شاع من فساد معاملتهم فيه.

فأجاب: قال الله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [سورة البقرة، الآية 275] وقال: ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: 278] فتضمنت الآية وعيدين: نفي الإيمان عن مفهوم الشرط ومحاربة الله ورسوله، وفي مسلم عن جابر بن عبدالله قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله، وكاتبه وشاهده، وقال هم سواء" وهو يعضد الوعيد السابق، والجاري من

---

(1) المصدر السابق، ج11، ص300.

(2) المصدر السابق، ج4، ص400.

(3) المصدر السابق، ج6، ص496 وما بعدها.

معاملة تونس على ما بلغني عام سبعة وسبعين وستمائة حين قلت الأحكام ثم عافى الله أن من يريد ارتهان دار او حانوت بكذا وكذا ديناراً على استغلال الموضع أو اكرية ما يكرى منه فيتفقون على شيء، ويذكرون أن الشهود يشهدون على هذا، فيذكرون من العروض ما يسوغون الإشهاد عليهم، وربما احضروه ثم ردوه إلى ربه، ويعطون الدنانير أو الدراهم.

وهذا سلف جر نفعاً بلا خلاف وربا وهو ما كانت تفعله الجاهلية، ودفع الدنانير بغير سلعة أقل وقوعاً من الأول، فلما كثر التداعي في ذلك بحثت عليه واستفهمت الشهود وغيرهم، فذكروا أنه الغالب من معاملات الناس وجماعة منهم من يتوقى الشهادة في الرهان لذلك، فلما تحقق أن الغالب الفساد، رأيت أن القول قول مدعيه من الخصوم لشهادة العرف له[1].

2-ذكر ابن عظُّوم القيرواني عن ابن أبي الدنيا قوله:

أ- وقد نقل الشيخ البرزلي في السابعة عشرة من خلال الحاوي عن جواب ابن أبي الدنيا في الشاهد بالثلاث والآخر الأيمان اللازمة أنها لا تلفق، لأن أحدهما شهد بشي والآخر شهد بخلافه[2].

ب- ثم قال وهو يتحدث عن تعارض البينات: قلت ونجري في مسالة الصحة والمرض والعقل وعدمه ما مر في الإكراه وضده والحياة وضدها، وهو اعتبار الأصل والناقل عنه، وتاتي الآن الإشارة إليه، ونقل في الثالثة والأربعين من أقضية حاويه عن جواب ابن رشد وأصبغ: بينة الصحة مقدمة، ونقله في سابعة هباته عن جواب ابن الحاج العمل على بينة الصحة، في الثامنة عشرة

---

(1) المصدر السابق، ج6، ص497 وما بعدها.

(2) ابن عظوم القيرواني من علماء المائة العاشرة – برنامج الشوارد، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير دراسة وتحقيق للطالب الماري على الضبع، نوقشت بتاريخ 1988، وقد اشتركت في مناقشتها، مطبوعة على الاستنسل، راجع ص326.

من طلاق حاويه عن جواب ابن أبي الدنيا إذا كان المريض يمشي ويتصرف فشهادة الصحة أعمل وهو مذهب ابن القاسم[1].

3-معظم المصادر التي تعرضت للحديث عن حياة ابن أبي الدنيا الطرابلسي تذكر انه كان شاعراً، وبعضها تصف شعره بالقلة[2]، ومن خلال ما وجد هو قليل فعلاً وما وجدناه منه يعبر بعضه عن حياة القناعة والزهد التي كان يتمتع بها ويعيش عليها ابن أبي الدنيا، ونجد ذلك واضحاً في أبياته الآتية:

طرق السلامة والفلاح قناعة ولزوم بيت بالتوحش مونس
يكفيه أُنساً أنْ يكون انيسه أي القرآن ونوره في الحندس
إذا رات عيناه إنساناً أتي فينفرن نفور ظبي المكنس
ولقلما ينفك صاحب مقول من زلة أو عثرة في المجلس
تحصى وتكتب والجهول مغفل حتى يراها في مقام المفلس

وله قصيدة وصفت بأنها طويلة ولم ينقل لنا منها إلا بيت واحد وهو:

بحمد الله تبتدأ الأمور وتختتم آخراً فيه الحبور

وله في الاعتذار ثمانية أبيات كان فيها ضعيف الشخصية أمام الحاكم الحفصي المستنصر بالله حيث قال[3]:

أمولاي ما زلتم تنيلون عبدكم ضروباً من النّعماء جلت عن المثل
ولم يبق إلا العفو وهو أقل ما ينال فأكمل لي به منحة الفضل
فما العيش في الدنيا بغير رضاكم بصاف ولا طعم الحياة بمحلولي
وقد كدر الإعراض صفو معيشتي فأنكرت احوالي وأنكرني أهلي
ولي أمل يقضي بغفران زلتي وبالعفو عن جرمي وبالصفح عن فعلي

---

(1) المرجع السابق، ص339.

(2) نفحات النسرين والريحان فيما كان بطرابلس من الأعيان – أحمد النائب – تحقيق وتقديم الأستاذ علي مصطفى المصراتي، ص91.

(3) نفحات النسرين والريحان، ص91.

بقيــت تزيــد الملــك عــزاً وبهجــة وتحيــي رســوم الفضــل والــدين والعــدل
فــلا يخطينــي منــك عفــو ورحمــة فإنهمـــا مـــا أخطيـــا أحـــداً قبلـــي
وصــلي إلــه العــرش بــدءاً وعــودة علـي المصـطفى مـن خلقـه خـاتم الرسـل

والمستنصر بالله كان قد كلف ابن أبي الدنيا بالإشراف على إنشاء المدرسة المستنصرية بمدينة طرابلس، ويبدو أنه قصر فيما كلف به، فأظهر له المستنصر إعراضاً جعله يستعطفه بقصيدة وصلتنا منها هذه الأبيات التي أثبتناها.

وقد وجه اللوم إلى ابن ابي الدنيا من فضلاء زمانه على هذا الضعف الذي بدأ عليه في هذه الأبيات وقد عرفوا عنه قوة الشخصية في مواطن كثيرة يضعف فيها غيره ولم يُعلم سبب هذا الضعف ولم تشر إليه كتابات المعاصرين ولا الاحقين.

فضله ومكانته العلمية:

الشواهد ناطقة بالمكانة العلمية والخلقية العظيمة التي كان يتمتع بها ابن أبي الدنيا الطرابلسي، وبالإطلاع العلمي الواسع الذي جعله مرجعاً للمستفتين وطلاب العلم والمعرفة كما أن إحاطته بمذهب عالم المدينة مالك بن أنس جعلت الحكام الحفصيين يستدعونه من طرابلس إلى حاضرة ملكهم (تونس) فيولونه منصب قضاء الأنكحة، فقضاء الجماعة، كما يكلفونه بالتدريس والخطابة في الجامع الأعظم (جامع الزيتونة).

وقد أثنى عليه كثيرٌ من العلماء، ونعتوه بالأوصاف الحميدة، والأخلاق الرفيعة والسيرة الحسنة، ونذكر علي سبيل المثال بعض هذه الشهادات ممن عاصروه او تأخروا عنه، ومن بينهم:

قال التيجاني –رحمه الله–: "ومن فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم، والمشاركة في الأدب المتقدمين على عصرنا هذا قليلاً أبو محمد عبدالحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي...."[1].

وقال عنه محمد بن محمد مخلوف "... ابن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي الإمام الفقيه العمدة الأصولي العالم المتقن القدوة"[2].

وقال ابن فرحون، وهو يتحدث عن ابن أبي الدنيا "له مصنفات جليلة"[3].

وقال عنه أبو العباس الغبريني – وهو معدود من تلاميذه –"لقيته بحاضرة إفريقية وانتفعت برؤيته، وتبركت بمشاهدته وهو من الفضلاء الذين لا يسوغ الإخلال بذكرهم في المشيخة ... وهو أحد المشايخ الجلة ... وكان له رواء وسمت حسن وكان له علم بالفقه، وأصول الفقه، وأصول الدين... وكان ينكر علم المنطق ويجلس للإقراء، فتقرأ عليه الفنون الثلاثة: الفقه، وأصوله، وأصول الدين ... وكان مقدماً للفتيا بحاضرة إفريقية، وما زالت فتاويه تصل إلى (بجاية)، وأما العدالة فهي صفته، رقي عنها؛ لأنه واضعها ... وكان ذا ديانة، وفضيلة، وصيانة وما زال قدره رفيعاً وجنابه مكرماً منيعاً ... وهو ممن يتجمل القضاء به لأهليته العلمية والدينية"[4].

إلى غير ذلك من الشهادات التي تدل على المكانة التي تبوأها ابن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي في مختلف المجالات، والتي جعلت الحاكم الحفصي يستصحبه

---

(1) التيجاني، رحلته ص272 ، ط، الدار العربية للكتاب، 1981م.

(2) المنستيري محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص192.

(3) ابن فرحون – هو برهان الدين بن إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون المدني المالكي الديباج المذهب، ص159.

(4) أبو العباس الغبريني – عنوان الدراية، ص109 وما بعدها، تحقيق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة – بيروت.

معه، ويؤثره بما لم يؤثر به غيره، وهو ممن وقعوا على المعاهدة التي عقدها مع حاكم فرنسا– فيليب الثالث بن لويس – والتي أوردها بعض الرحالة، وغيرهم[1].

وقد ذكر الوزير السراج "ان ابن أبي الدنيا توفي في السادس عشر من ربيع الأول من سنة 684هـ ودفن بالزلاج، وشاع في ألسنة العامة أن عند رأسه سارية كبيرة طويلة.

ويقولون: قال صاحب هذا القبر: اجعلوا لحدي بقدر علمي، يريدون عظيم درجته في العلم"[2].

مقترحات:

بعد هذا العرض الموجز لحياة ابن أبي الدنيا الطرابلسي، وبعد ما سمعنا من ملخصات، وآراء، ومناقشات جرت في هذه الندوة – ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي –نرى أن ما سمعناه يمثل ذخيرة هائلة، وزاداً عظيماً نتيجة جهاد مستميت من أجدادنا في أقطار المغرب العربي، ونحن أحفاد لأولئك الذين رسموا لنا طريق التواصل، وعبدوه بجهودهم وعرقهم، وصار من الواجب علينا ان لا نقتصر على الحفاظ عليه أو ترميمه، وإنما الواجب فوق ذلك فهمه حق الفهم واستلهام مواقع العظمة والعبرة منه، والاستفادة من الخطوات التي خطوها والنتائج التي حققوها، فنعتبرها دعائم توجهنا في تحويل هذا التواصل إلى اندماج والتحام، ثم تكاتف وتوحيد للجهود حتى لا تظل هذه الأمة فريسة للذئاب التي تجمعت عليها من كل حدب وصوب تحاول جاهدة –في جميع المجالات– تفريق شملها، وتغريبها عن بعضها، وإثارة الفتن بين صفوفها، وتشكيكها في أصالتها، والوصول بها إلى درجة الإحباط.

---

(1) الزركلي – الأعلام، ج3، ص285.

(2) الوزير السراج –الحلل السندسية في الأخبار التونسية – الجزء الأول من القسم الرابع، تحقيق وتقديم محمد حبيب، ص1040.

وعلماء الأمة هم الذين يقع عليهم العبء الكبير في توحيد الصف، وجمع الشمل والتفسير الصحيح لمظاهر الاختلاف والاتفاق بين شعوب وأقطار المغرب العربي حتى لا يبقى لبس أو خفاء، أو جهالة قد يكون لها أثر سلبي على حياة هذه الشعوب، وتحقيقاً لذلك نرى ما يلي:

1- انعقاد مثل هذه الندوة سنوياً تناوبياً في هذه الأقطار وفق خطط ولوائح وبرامج توضع لذلك.

2- اعتبار أساتذة الجامعات والمفكرين في هذه الأقطار هيئات استشارية لدول المغرب العربي تنظم لهم لقاءات دورية كل سنتين، أو ثلاث لدراسة الأمور الخطيرة التي يشترك فيها قطران فصاعداً، حتى تحاصر بعض المخاطر قبل أن تكبر.

3- إعفاء الكتب والوسائل الثقافية أثناء نقلها في هذه البلدان من القيود والتحجيرات والمعوقات.

4- جعل جوائز سنوية لأفضل كتاب يؤلف ، أو ابتكار يحصل في أي جانب من جوانب المعرفة.

5- تركيز وسائل الإعلام المرئية، والمسموعة، والمقروءة على البرامج الهادفة التي تبرز أصالتنا ووحدة كفاحنا.

6- التعريف بعظماء الأمة عن طريق تسمية المؤسسات، والشوارع، والأحياء والميادين بأسمائهم.

7- تكوين رابطة للعلماء تضم جميع المتخصصين في أوجه المعارف يكون لها دور الإصلاح وعلاج المشكلات التي تطفو على السطح بين دولتين فصاعداً.

8- تقدير العلماء والمفكرين وتحسين أوضاعهم المادية حتى يتفرغوا للعمل، والمعرفة والتجنيد، والابتكار، ثم الاختراع.

9-حرية تنقل العلماء بين هذه الأقطار، ووضع تسهيلات لهم في إقامتهم المؤقتة في غير بلدهم الأصلي.

هذا: وفي الوقت الذي أنهى فيه حديثي هذا نشكر كلية الدعوة على هذه البادرة الطيبة التي جعلتنا نتعرف على أساتذة فضلاء من مختلف أقطار المغرب العربي، متمنين أن تكون لها نتائج عملية على الساحة العربية كلها.